المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الرؤية التوحيدية للمنهج والمعرفة عند عبد الوهاب المسيري

The monotheistic vision of the curriculum and knowledge of Abdul Wahab Almesiri

د/ عبد الحليم بن حجبة

جامعة حسيبة بن بوعلي. الشلف،

تاريخ الإرسال: 22 / 11 / 2019	تاريخ القبول: 14 / 12 / 2019	تاريخ النشر: 10 / 04 / 2020

ملخص:

تعد هذه الدراسة قراءة تحليلية لفكرة أسلمة المعرفة والمنهج، من خلال كتابات عبد الوهاب المسيري كنموذج لمفكر عربي إسلامي، اهتم بنقد الحضارة الغربية في صورتها الاختزالية المنفصلة عن القيمة، ودعا إلى منهج بديل يقوم على فلسفة التوحيد.

الكلمات المفتاحية: عبد الوهاب المسيري؛ المنهج التوحيدي؛ أسلمة المعرفة؛ الأسس؛ ابستومولوجيا.

Summary :

This study is an analytical reading of the idea of Islamization of knowledge and methodology, through the writings of Abdul Wahab Al-Messiri as a model of an Arab Islamic thinker, interested in criticizing Western civilization in its form of separatism separate from value, and called for an alternative approach based on the philosophy of monotheism.

Keywords : Abdelwahab El-Messiri, tawhidi paradigm, Islamization of knowledge, the foundations, Epistemology.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مقدمة:

برز في ثمانينات القرن التاسع عشر تيار إصلاحي يدعو إلى أسلمة المعرفة وفق منهج بديل أكثر رحابة، لا يجعل شرط المعرفة في تحقيق عنصر الموضوعية المطلقة أو المطابقة التامة للواقع، ولا في الأخذ بالواحدية السببية التي تقوم على حتمية العلاقة بين العلة والمعلول، وإنما في الارتكاز إلى رؤية شمولية تتجه نحو تفسير كلي للظواهر، يفهم الجزء ضمن بنيته، ويربط الفرع بأصله في مجال نسبي من غير تجاوز الغيب استكمالا للحق، ولن يتحقق هذا إلا في روح التوحيدية، لا باعتبارها إطارا عقديا يسلم به المؤمن فحسب، بل في تصورها كسياق ابستمولوجي مؤهل لتشكل المعرفة في حدود إمكانيتها والآليات التي تتم بها من زاوية الوحي.

والدعوة إلى أسلمة المعرفة من مدخل فلسفة التوحيد هي محاولة اجتهادية جادة، حاول من خلالها بعض المصلحين ومن بينهم محمد إقبال، وإسماعيل الفاروقي، والحاج حمد أبو القاسم، وعلي شريعتي، وعبد الوهاب المسيري، التأصيل لمنهج إسلامي يؤطر لحركة العقل في تعامله مع ظواهر الكون والإنسان تعاملا قائما على إدراك السنن القائمة بينهما، إيمانا منهم بأنه لا سبيل إلى تحصيل معرفة صحيحة، أو فهم أو نظر بغير منهج إجرائي ينبني على فاعلية الترابط بين جدلية الغيب والإنسان والطبيعة.

من هنا تهدف هذه الدراسة إلى استقراء أحد النماذج العربية المعاصرة الداعية إلى أسلمة المعرفة، ولكن قبل ذلك تؤكد على صياغة منهج معرفي توحيدي متشرب بالرؤية الإسلامية الضاربة في عمق التراث، يحقق للذات قدرات الاستقلال والإبداع، ونقصد هنا دعوة المفكر المصري عبد الوهاب المسيري وعليه: ما طبيعة المنهج التوحيدي الذي يدعو إليه عبد الوهاب المسيري؟ وما أسسه الإبستمولوجية التي يقوم عليها؟ وكيف هي صورة المعرفة في إطار هذه الرؤية التوحيدية؟

1ـ المنهج التوحيدي ـ المرجعية والأسس:

يرتكز المنهج التوحيدي الذي يدعو إليه عبد الوهاب المسيري على مقومات التراث العربي الإسلامي من قرآن، وحديث، ولغة ومعمار عربيين يقول: "وهو يعود إلى المنظومة الإسلامية بكل قيمها وخصوصيتها الدينية والأخلاقية والحضارية وستبطنها، ويحاول تجريد نموذج معرفي يتمكن من خلاله

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

توليد إجابات على الإشكاليات التي تثيرها الحداثة الغربية، وعلى أية إشكالات أخرى جديدة "1، ولا مانع من الاستفادة في المقابل من منجزات التجارب الإنسانية المشتركة.

فمن الضروري مراعاة خصوصيتنا الحضارية واستثمار مرجعيتنا الدينية عند صياغة هذا المنهج المعرفي، بالغوص في فلسفة التوحيد ومفهوم الطبيعة الإنسانية المشتركة، باعتبارهما أكثر قدرة على تقديم رؤى تفسيرية متفتحة ونماذج معرفية أكثر شمولية، مما يعكس معالم جديدة لمشروع فكري إصلاحي يضرب بجذوره في التراث الإسلامي، بنوع من المرونة الاجتهادية المتجاوزة للمطابقة والحرفية القبلية، مع الاستفادة من عناصر التجربة الحضارية بعلومها وآدابها ومعارفها الضالعة.

والمنهج التوحيدي باعتباره مشروعا إسلاميا ورؤيةً وجوديةً توحيديةً وليس أحادية، لا ينغلق على ذاته في تراكمية التراث الإسلامي بأسْوَار الأصالة والجمود، بل يفتح أبواب الاجتهاد الأصيل بآليات قرائية ونماذج تفسيرية متأنية، منبثقة من بيئته وثقافته ومفاهيمه، كما يمارس عمليات التحليل والنقد الجذري لمنجزات الحضارات الأخرى ومنظومتها الفكرية والمعرفية بما تخفيه من إيديولوجيات وأفكار مغايرة لقيمنا، فوراء ترسانة العلوم والمفاهيم والمناهج المتأتية منها، توجد ترسانة أخرى من التحيزات التي ينبغي الانتباه لها، بترك مسافة بينية تمكننا من استعادة مرجعيتنا التوحيدية المتجاوزة بكل قيمها وخصوصيتها الدينية والحضارية، لنولد منها نموذجا معرفيا حديثا نهتدي من خلاله إلى حلول للكثير من الإشكالات المطروحة.

1.1. الأسس الإبستمولوجية للمنهج التوحيدي:

حدد المسيري جملة من المنطلقات التي اعتبرها رئيسة وضرورية لتأسيس المنهج البديل تميزه عن غيره من النماذج الأخرى، وقد رتبها فما يأتي:

ـ أولا ـ نابع من التراث: إن قوة وثراء أي منهج معرفي تستدعي مرجعية ثابتة ورؤية شاملة تتسع لجميع الإنجازات المادية والمعنوية للإنسان، وهذا ما وعاه المسيري جيدا وأدركه منذ البداية وهو ما جعله ينتقد المناهج الأحادية والاختزالية، ولا يقنع برؤيتها وآلياتها في التحليل والتفسير، ويدعو في المقابل إلى منهج

1 ـ عبد الوهاب المسيري ، معالم الخطاب الإسلامي المعاصر، ورقة أولية، مجلة المسلم المعاصر لإعلام العرب، العدد 82، القاهرة، 1998، ص ص 175/174.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

جديد نابع من التراث، ويقصد به "مجمل التاريخ الحضاري الذي يتسع للإنجازات المادية والمعنوية للإنسان في هذه المنطقة، ويشمل ما هو مكتوب وصريح، وما هو شفوي وكامن"2.

والقول بالتراث لا يعني هنا التحيز العربي المطلق للتراث الإسلامي، وقد يحدث ذلك ولكن من اللازم "تحقيق قدرا من الموضوعية عن طريق الإفصاح عن التحيزات"3، إن سقطت سهوا أو من دون قصد، ولا يعني كذلك تجاهل منجزات الحضارات الأخرى، أو إغفال الاكتشافات الغربية المختلفة وعدم استخدامها فيما ينفع، وإنما يعني الاستفادة قدر الإمكان من المنظومة الفقهية الإسلامية، باعتبارها خزانا ثريا، واجتهادا مهما يمكن الارتكاز عليه إلى جانب المنتجات الحضارية التاريخية بمنجزاتها المادية والروحية الظاهرة منها والصامتة كرافد مكمل.

إذا فالقاعدة الجوهرية للمنهج التوحيدي هي الدين الإسلامي من قرآن وسنة نبوية شريفة واجتهادات فقهية مهمة، ولكن مع تجديد ديناميكي لهذه النظم الإسلامية، بترجمة المفاهيم الفقهية بطرق حديثة وتوليد أسئلة عن واقعنا لا تحويلها إلى مجرد زخارف نزين بها خطاباتنا التحليلية والإدراكية، ومع هذا يرى المسيري" أن النماذج المعرفية البديلة لن تحل محل النماذج السائدة بالضرورة، وإنما ستكون بمثابة وسائل أكثر تركيبا"4، تعيننا على تجاوز إشكالاتنا العالقة، وترتيب أولوياتنا وتحقيق فهم أفضل للحياة، وإثراء "النماذج السائدة، وهو ما يغني الممارسة الأرضية المشتركة ويزيد من ثرائها واتساع رؤيتها.

. ثانيا . يقين ليس بكامل واجتهاد مستمر: انتقد المسيري كل رؤية منهجية مكتفية بعنصر واحد في تفسير الظواهر، والمتوجهة نحو التبسيط والمستجيبة للواقع المادي المباشر، رغم أن الوجود الإنساني يتميز بالتعدد والتنوع، والثراء الذي لا يمكن رصده، وارتأى في المقابل أن يكون فهم الواقع الإنساني بثرائه وتنوعه وشموليته وهو ما يتطلب منهجا نماذجه فضفاضة، "لا يطمح إلى أن يصل إلى قوانين صارمة أو إلى إجابات موضوعية نهائية وصيغ جبرية بسيطة تفسر كل شيء، وتصل بالإنسان إلى نهاية التاريخ"5، وينبغي فوق هذا كله أن يرتكز هذا المنهج على مفهوم الاجتهاد المستمر بديلا عن الموضوعية الحيادية التي تعني موضوعا مرصودا دون ذات راصدة، وبديلا عن الذاتية المتمحورة حول نفسها، "

2 ـ عبد الوهاب المسيري ، العالم من منظور غربي، دار الهلال، الكويت، 2001المصدر نفسه، ص 301.
3 ـ المصدر نفسه، ص 302.
4 ـ المصدر نفسه، ص 302.
5 ـ المصدر نفسه، ص ص 288/ 289.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

فاللامحدود والمجهول موجودان في صميم الظواهر الإنسانية والطبيعية"6، لذا لا يمكن فهمها بشكل موضوعي كامل ومطلق، يقول إدغار موران: " أصبح عدم اليقين مصاحبا للعلم، خصوصا الفيزياء، فالذرة ليست الوحدة الأولى البسيطة، بل هي وحدة متغيرة وقد حدد هيزنبرغ مبدأ اللايقين وظهر تشويش كبير في مفهوم الجزيء، هذا كله حطم فكرة الوحدة والوضوح وألغى فكرة الحتمية والآلية، وهدم مبدئي الهوية وعدم التناقض"7، ما يجعل عملية الفهم مفتوحة ومستمرة، وهو دليل أخر على رفض التفسيرات المغلقة الثابتة، لهذا يقول المسيري: بدلا من عبارة الذاتية والموضوعية لنستخدم مصطلحات مثل أكبر تفسيرية وأقل تفسيرية، فهي تنبه الإنسان إلى وجود مكون ذاتي موضوعي في المعرفة، وتحذره من التحيزات الكامنة في المعرفة، وأن ما يقوله المرء ليس يقينا أو عالميا نهائيا بل ستظل النسبية قائمة8، من الواضح هنا كيف يدعونا المسيري بسلاسة ذكية إلى تبني التفسيرية بوصفها بديلا للذاتية والموضوعية القاصرتين عن رصد الواقع ومسايرة ظواهره، ولكنها ليست تفسيرية يقينية نهائية بل فتحًا مستمراً للفهم والاجتهاد، قابلاً للزيادة والمواصلة.

. ثالثا . لا يوجد مجال للتحكم الكامل في الواقع: إن القول بنسبية الفهم والتفسير وعدم وجود يقين مطلق، يفضي بنا منطقيا إلى التسليم بعدم وجود سيادة مطلقة على الكون ذلك أن قدرات الإنسان ناقصة وعلمه محدود، والعلم المطلق للخالق وحده، فالإنسان رغم تميزه عن باقي الكائنات بفضل ما ناله من تفضيل وتكريم ومركزية في الكون لتحقيق الاستخلاف إلا أن هذا الوضع المتميز والتفضيل المتعالي لا يمنحه حق السيطرة والتحكم المطلق في الوجود.

لهذه الأسباب فإن جوهر المنهج التوحيدي الذي يدعو إليه المسيري قائم على الحد من نزعة الكبرياء الشيطانية المتوارثة، والإقرار بقيمة الطبيعة وغائيتها ((رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ))9، فكل ما في الواقع لا ينبغي أن يعامل معاملة الوسائل والمصالح والاستغلال، بل ينبغي النظر إليه كقيمة في حد ذاته، فالإنسان لم يستخلف في الأرض لينصب نفسه سيدا للوجود، يملك من نفوذ التحكم والتسخير مالا يحاسب عليه، كما فهم بعض التقدميين والنشويين وفقا لنموذجهم الإمبريالي القائم على إرادة القوة والسيطرة ورغبة الهيمنة والتحكم في الواقع، والنتيجة تدمير هائل للأرض والعباد، فضلا عن ترسيخ فكرة تميز الإنسان وتفوقه مما وسع الفجوة بينه وبين بيئته وبينه وبين أخيه الإنسان. لكل هذا

6 ـ عبد الوهاب المسيري ، العالم من منظور غربي، المصدر نفسه، ص 289.

1 Edgar Morin, La method. Les idées :Leur habitat, Leur vie, leurs mœurs , leur organization, editions du seuil, Paris, 1991, p265

8 ـ عبد الوهاب المسيري، العالم من منظور غربي، مصدر نفسه، ص 289.

9 ـ أل عمران، الآية 191.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

يقول المسيري: فإن المنهج البديل لن يحاول التحكم الإمبريالي في العالم، وإنما سيحاول الاستفادة منه والاتزان معه وإعماره والمحافظة عليه10، وهو الأصل من استخلاف البشر للأرض لإعمارها والمحافظة عليها حتى تتحقق شروط العيش الكريم والتعايش السلمي، فتتهيأ ظروف العبادة الصحيحة للناس في دنياهم وأخراهم.

ـ رابعا ـ لا اختزال ولا تصفية للثنائيات: إن إعمال الفكر في الكون بنوع من التركيب والشمولية يجعله أكثر ثراء في رؤيته للإنسان والطبيعة والإله، فلا يقع في الطرح التبسيطي والاختزالي للأشياء دون فهمها في إطار الثنائية والكلية، وهذه الرؤية بدون شك هي معادية للقيم الدينية والإنسانية، فهي لا ترى فرقا بين الإنسان والطبيعة، وهنا يكمن البون الشاسع بين الرؤية التوحيدية الفضفاضة والرؤية المادية الأحادية الاختزالية، يقول المسيري: "هذا العلم لن يختزل الواقع إلى عناصره الأولية المادية، ولن يصفي الثنائيات الموجودة في الواقع، فهي صدى للثنائية الكبرى (ثنائية الخالق والمخلوق وثنائية الإنسان والطبيعة)، وهو لن يركز على الكلي دون الجزئي أو على الجزئي دون الكلي، ولن يركز على الخاص دون العام أو على العام دون الخاص، ولا على الاستمرار دون الانقطاع أو الانقطاع دون الاستمرار"11.

يتجه بنا المسيري في منهجه كما هو واضح نحو ثنائية تستمد شرعيتها من الوسطية الإسلامية وتضعنا إزاء شمول في تركيب مع تجزئة، وعموم في تعالج مع خصوص، وانفصال في ارتباط مع اتصال، وهذا يعني المحافظة على المسافة التي تجمع بين أطراف الثنائية، حتى لا يجّب طرف طرفا آخر، أو يحل جزء في كل، أو خاص في عام، وهنا تظهر لمسة التوحيد حيث تبقي علاقة الانفصال والاتصال حاضرة دائما بين الخالق والمخلوق، "فالله سبحانه ليس كمثله شيء فهو غياب إمبريقي كامل، ولا يمكن أن يدرك بالحواس، ولكنه في الوقت نفسه أقرب إلينا من حبل الوريد، دون أن يلتحم بنا ويجري في دمائنا ويصبح بذلك جزءا من عالم الصيرورة، أي أن الحضور الإلهي لا يأخذ شكل تجسد مادي، وإيمان الإنسان به هو عنصر ذاتي، فهو في القلب ولكنه ليس ذاتيا تماما"12، لهذا تصبح الرؤية الفضفاضة ضرورية في المنهج حتى لا تتم تصفية الإنسان ومنظومته القيمية الأخلاقية والدينية لصالح الدولة، والماضي لا ينبغي إسقاطه لصالح الحاضر، والإنساني لا يمكن تجاهله لصالح الطبيعي"13

10 ـ عبد الوهاب المسيري ، العالم من منظور غربي، المصدر نفسه، ص 291.

11 ـ المصدر نفسه، ص 292.

12 ـ عبد الوهاب المسيري ، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2010، ص 134.

13 ـ عبد الوهاب المسيري ، العالم من منظور غربي، المصدر نفسه، ص 293.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ـ خامسا ـ رفض الواحدية السببية: يدعو المسيري في طرحه البديل إلى الأخذ بمبدإ التعددية السببية، أو ما يمكن تسميته أيضا بالسببية الفضفاضة التي لا توجد إلا في النماذج التوحيدية، حيث يفترض وجود مركز خارج العالم، في مقابل الواحدية السببية أو السببية الصلبة ، والتي تقوم على حتمية العلاقة بين العلة والنتيجة، بحيث إذا ما حضر السبب (أ) أدي حتما بالطريقة نفسها إلى النتيجة (ب)، يقول المسيري: "سيظل مبدأ تعددية المؤثرات محل مبدإ أحادية المؤثرات في فهمنا وتفسيرنا وتنظيرنا حول الطبيعة والإنسان، وتعددية المؤثرات تنبع من الأيمان بتعدد الظواهر الطبيعية والإنسان واستحالة ردها إلى عنصر مادي واحد"14، وهو يدعو إلى الأخذ في الحسبان العلل القريبة والبعيدة، الظاهرة والخفية منها وعدم ردها إلى عناصر محدودة، مادية يمكن رصدها بأدوات حسية أو حسابات عقلية دقيقة، وهذا لا يعني السقوط في متتالية الأسباب وعدم تحري الموضوعية والدقة في الدراسة أبدا، وإنما المقصود هو عدم حصر العلية في الواحدية المادية، واختزال الواقع إلى عناصره الحسية الظاهرة، واستخدام المعطيات المادية كمقياس وحيد للقياس، فاللامحدود واللامعلوم وما لا يقاس، وما لا يمكن التنبؤ به موجود دائما، ما يسمح بوجود أسرار وتركيب وثنائيات لا محالة، ومن ثم يجب الاكتفاء بما هو معقول وإنساني.

ـ سادسا ـ محاولة الوصول إلى نظرية شاملة: يدعوا المسيري إلى ضرورة الاتجاه نحو تفسير كلي للظواهر والأفكار، يفهم الجزء ضمن بنيته ويربط الفرع بأصله، في إطار نسبي لا يدعي اليقين المطلق ولا الفهم النهائي، فلا يغدو التنظير تحكماً إمبرياليا كاملاً في الطبيعة ولا اعتقاداً جازماً، أي التأرجح بين محاولة الوصول إلى حلول نهائية وتفسيرات شاملة أو التسليم باستحالة أي تعميم نظري أو يقين معرفي فهذا المنهج يؤمن بوجود حتمية ميتافيزيقية، تضفي على الوجود سرا ما، فلا تجعله عاريا مكشوفا سهل المنال، كما توهم دعاة النموذج المعرفي الغربي، فاعتبروه تارة نظاما رمزيا يمكن قراءته بلغة الرياضيات، واعتبروه مرة أخرى مجموعة من القصص الصغرى يمكن تفكيكها ومعرفة أسرارها، يقول المسيري: "وحتى لو انقسم الواقع إلى مجموعة من القصص الصغرى (على حد قول أنصار ما بعد الحداثة)، ولكن هناك داخل كل قصة، مهما بلغت من صغر قصة كبرى وهذا ما نعبر عنه بقولنا إن ثمة نموذجا كامنا وراء كل الظواهر"15.

14 ـ المصدر نفسه، ص 294.

15 ـ عبد الوهاب المسيري ، اليد الخفية دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، الطبعة الثانية، دار الشروق، 2001، القاهرة، ص 303.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

فمن الضروري صياغة نظرية كبرى تعترف بوجود مسافات قائمة تبحث في ما يمكن معرفته وحسب، لأن اليقين المطلق لا يمكن بلوغه، فلا تكون هذه النظرية مطلقة الكمال، "وإنما كبرى وشاملة إلى حد ما أو داخل حدود ما هو ممكن إنسانيا، ومثل هذه المحاولة لا يمكن أن تتم في إطار مادي واحدي يصفي ثنائية الإنسان والطبيعة"16.

وينبغي أن نعي مدى إصرار المسيري على أن يكون االمنهج البديل كليا وشاملاً، فهو يؤكد على هذه السمة تكرارا ومررا حتى لا نقع فريسة النظريات الكبرى للأخر، فقصور الرؤية أحيانا يزرع الشك في النفوس ويجعلنا نبحث عن بدائل أكثر تفسيرا، خصوصا إذا كانت حديثة ومغرية، ولعل هذا ما جعلنا نقع في جاذبية بعض النماذج رغم مقوماتنا الثرية والفضفاضة، فعلى سبيل المثال إن قمنا بتحريم الصورة بعد أن أصبحت لغة الصورة أكثر اللغات شيوعا في العصر الحديث، فإننا سنخلق فراغا حضاريا في العالم الإسلامي، سيقوم العلمانيون الذين تملكوا ناصية هذه اللغة بملء هذا الفراغ بصور وأفلام تعبر عن رؤيتهم للكون تغزو أعماقنا"17 .

إن القدرة على تحديث رؤية كلية تغطي جميع مجالات الحياة الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والجمالية، وتتعامل مع القانون والتاريخ والمعمار، ومع وضع المرأة والشباب، والمتدينين بصورة حديثة تستجيب لتحديات العصر وَفْق الرؤية التوحيدية، أمر مطلوب يشكل تحديا حضاريا ورهانا إصلاحيا، من الضروري الوعي بـه والعمل علي تحقيقه .

ـ سابعا ـ منهج توليدي استكشافي غير تراكمي: يري المسيري أنه بدل التراكم المعرفي ومواجهة الواقع بقانون عام واحد، ينبغي تبني منهج توليدي اجتهادي، لا يقوم على التلقي الموضوعي للمعلومات، بل يعمل على تمَيزِيها من خلال إعادة قراءتها ومعرفة الدوافع الكامنة خلفها، والوقوف عند تفاصيلها التاريخية والاجتماعية والإيديولوجية، وهو ما يجعل"عملية التفسير عملية حلزونية لا متناهية"18، حتى لا نسقط في نقطة نهاية التاريخ والإنسان، فالقدرة على الإبداع ينبغي أن تظل قائمة داخل المنهج التوحيدي بوصفه مشروعا إنسانيا لا يكتفي بتراكمية المعرفة أو جمودها، بل يدعو إلى الانفتاح على جملة التجارب والمعارف البشرية المختلفة، في إطار رؤية تركيبية ديناميكية متواصلة في حدود القيم الدينية الأصيلة،

16 ـ عبد الوهاب المسيري ، العالم من منظور غربي، مصدر سابق ، ص 295.

17 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركة الإسلامية، مصدر سابق، ص 61.

18 ـ عبد الوهاب المسيري ، اليد الخفية دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، الطبعة الثانية، دار الشروق، 2001، القاهرة. ص 302.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

والاعتبارات الأخلاقية والإنسانية المشتركة "هذا الانفتاح الذي يجعل من الحضارات تتغذى من جميع خبراتها التي ستتحرر من الحقائق التي تدعي أنها صلبة ومطلقة"19، وبهذا تحافظ كل حضارة على خصوصيتها المحلية وتتجاوز في الوقت نفسه التقليد الحرفي لتجارب الآخرين وما ينجر عن ذلك من تحيزات وتبعية مهلكة.

ـ ثامنا ـ الانطلاق من مقولة الإنسان: حاول المسيري ردّ الاعتبار لمقولة الإنسان من خلال التأسيس لنزعة الإسلام الإنسانية من مدخل فلسفة التوحيد، ويتضح هذا في معظم دراساته، ابتداء من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، وانتهاء بقصص الأطفال، ولعل هذا الإيمان هو الذي دفعه إلى اعتناق الماركسية، وهو أيضا الذي دفعه إلى استبعادها وتجاوزها، حتى وصل إلى رحابة الإيمان بالإنسان الإنساني المتجاوز لقوانين المادة، وهو أكبر شاهد على وجود الله20.

يؤكد المسيري في طرحه البديل أن "الإنسان يقف في مركز الكون والطبيعة كائنا فريدا ومركبا، وأهم علامات تميزه وتفرده عقله الذي لا يسجل الطبيعة بشكل سلبي وحسب، وإنما يعيها بشكل فعال"21، عكس الرؤى التي وضعت الإنسان في مركز الكون مؤقتا ولكنها رفضت تجاوزه للواقع الحسي، فلم تعترف بخصوصية خلقه وتميزه عن باقي الكائنات الأخرى، مما يعني تسويته بالحيوان أو بالطبيعة لا مشكلة، فيغدو مجرد كائن اقتصادي أو جسماني منفصل تماما عن أيّ قيم دينية أو إنسانية، ومتجرد كلية من قداسة العقل والضمير لا يعرف غاياتٍ أو أهدافا ساميةً، يعيش لحظته المادية المباشرة فقط، ويجيد نشاطا واحدا هو البيع والشراء والاستهلاك والجنس. من هذه الرؤية الأحادية المادية التي تختزل الإنسان في بعده المادي فقط، ولا تعترف بأبعاده الروحية وثنائيته المركبة، يستدعي المسيري مفهوم الأنسنة في منهجه.

ـ تاسعا ـ مقولة غير مادية: يقول المسيري: بدلا من استخدام مقولات مادية تفسيرية وحسب تفرض الواحدية على الواقع وتسوي الإنسان بالطبيعة، يمكن استخدام مقولات تفسيرية مادية/غير مادية،

19 ـ عبد الوهاب المسيري ، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المقدمة فقه التحيز، مصدر سابق، الطبعة الثالثة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي هيردن فيرجينا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1998.ص 104.

20 ـ ممدوح الشيخ، المسيري من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، طبعة الأولى، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2008. ص 46.

21 ـ عبد الوهاب المسيري ، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد المقدمة، فقه التحيز، مصدر سابق، ص107.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

كمية/كيفية، مستمدة من النظام الطبيعي، متجاوزة له في ذات الوقت"22، وهذا الكلام لا يعني إلا شيئا واحدا وهو الإقرار بالثنائية التي تسمح بالرحابة، وتمكننا من التعامل مع الوجود والإنسان في سحرهما وتركيبتهما، فيزول غموض الكثير من المسائل التي لم نجد لها تفسيرا واضحا في جميع جوانبها، وهذا ما يجعل المنهج المادي يخفق في مثل هذه المسائل ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ))23، إذا فالاعتراف بأن الوجود ليس مادة فقط بل هو مقولة غير مادية أيضا، يعني الاعتراف بحقيقة أخرى جوهرية تكمل المادة ولا تجبّها هي الله في الرؤية الإسلامية، الذي يعدّ وجوده ضامنا معرفيا وانطولوجيا لمعارفنا ووجودنا وقيمنا.

لهذا يلح المسيري على المرجعية الدينية معتبرا إياها مفردة تحليلية ضرورية في الرؤية والفهم، في مقابل المقولة المادية. وهو جوهر الإسلام الذي "يقف في الوسط بين الماركسية التي تؤكد الجانب المادي في الوجود الإنساني والمسيحية التي تؤكد الجانب الروحي في هذا الوجود: فكلاهما يهمل ثنائية الجسد والروح التي تسم الوجود الإنساني"24، وبهذا نحافظ عل المعادلة الذهبية، فلا ننزل إلى مستوى مُتَدَنٍ من المادية السائلة، ولا نرتفع إلى مستوى عالٍ من الروحانية المتطرفة، بل نجمع الأمرين معا، في بنية تتفق وثنائية النفس البشرية في تركيبتها المادية والروحية.

2. صورة المعرفة في فلسفة التوحيد :

دعا المسيري إلى ما سماه بإسلامية المعرفة التي يستعيد فيها العالم الحقيقة في حدود مقولتي التوحيد والإنسانية، يقول: "وأنا أذهب إلى أن جوهر مشروع إسلامية المعرفة أو توليد معرفة إسلامية هو أنسنة المعرفة، أي استرجاع الإنسان مرة أخرى ليكون كائنا غير مادي، أو مختلفا بشكل جوهري عن الطبيعة والمادة" 25، والمقصود من هذا الكلام أن الخطوة الأولى نحو معرفة إسلامية بديلة في نظر المسيري تبدأ بأنسنة المعرفة، التي تعني استرجاع مفهوم الطبيعة البشرية، مما يجعل كمال المعرفة في شرط الملازمة بينها وبين القيم لا في انفصالهما.

قول المسيري بإسلامية المعرفة هو دحض للشرط المنهجي الذي يفصل المعرفة عن القيم الدينية والإنسانية، وإقرار في الوقت نفسه بأن القرآن والسنة النبوية يحتويان نظاما معرفيا مركبا وشاملا،

22 ـ عبد الوهاب المسيري ، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد المقدمة، فقه التحيز، المصدر نفسه، ص 298.
23 ـ فصلت، الآية 53.
24 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركة الإسلامية، مصدر سابق، ص ص 70/69.
25 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركة الإسلامية، المصدر نفسه، ص 106.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

بمستوى كوني متعالٍ، يقوم في أساسه على مبدإ التوازن القائم أصلا في طبيعة الوجود الإنساني وفي طبيعة معرفته، هذا المبدأ الذي يتأسس على الجمع بين الحاجات الروحية والمادية وعلى التأليف بين حقائق الوحي واجتهادات العقل، وربما هنا مكمن الاختلاف بين نظام المعرفة في العلوم الوضعية الغربية ونظام المعرفة في الرؤية الإسلامية ويتحدد الفرق كما يوضح المسيري: في أن المنهج الإسلامي الجديد يحاول أن يؤسس علوم إنسانية لا تستبعد الإنسان ولا تزعم أنها محايدة منفصلة عن القيمة، بل تعبر عن المنظومة القيمية الإسلامية26، وتدافع عن إنسانية الإنسان من النزعات المادية والعلمانية والعدمية.

والملاحظ على المسيري أنه يؤكد على مقولة الدين وجوهره القائم في التوحيد كمرجعية مؤسسة لنظام المعرفة والأخلاق، يقول: "أرى أنه يمكننا أن نستنبط نموذجا معرفيا إسلاميا من القرآن الكريم والسنة المطهرة"27، فالنص القرآني خصوصا يمثل بالنسبة له المرجعية النهائية التي يمكن أن نرتكز عليها لتوليد منظومة قيم معرفية وأخلاقية وجمالية، لأن القيمة لا توجد إلا في عالم متجاوز لعالم الطبيعة والمادة والحيوان.

كما أن النص القرآني مليء بالمعاني الكلية والحقائق المطلقة المتعالية عن حدود الخطاب الاصطفائي إلى نطاق الكونية والعالمية، زيادة على ذلك يعتبر مفردة تحليلية ضرورية في الرؤية والفهم في مقابل المقولة المادية، يفتح أمام العقل الإنساني أفق النظر وسعة التدبر بمقدار المعطيات التي يقدمها للتأمل، فهو مثلا لا يطابق بين نظام الأفكار والوقائع المحسوسة بل يثبت للأشياء وجودا خارجيا عينيا مستقلا عن الذات العارفة وإدراكها، فوجودها قائم سواء وجدت هذه الذات أم لا، أدركتها أم لم تدركها، بخلاف ما تذهب إليه الفلسفات التجريبية والحسية التي تجعل معيار الحقيقة في مدى مطابقة الأفكار للأشياء المحسوسة، مما اختزل المعرفة وجعلها مرتبطة بعالم الشهادة، وأهمل موجودات عالم الغيب، مما لا يمكن إدراكه بالحواس كاللوح المحفوظ والجنة والنار والعرش ونحوها28.

والأهم من ذلك أن الدين (الإسلامي) يحتوي تراثا مشتركا ونقاط تشابه كثيرة بينه وبين العقائد الأخرى (المسيحية واليهودية)، يمكن أن نولد منها مقاربات معرفية وأخلاقية مشتركة، بل وأساسا للتفاهم يقول المسيري: "ثمة نقاط تشابه بين العقيدتين الدينيتين الإسلامية والمسيحية في كثير من الوجوه، قد تؤدي إلى التقارب والتفاعل، كما قد تؤدي إلى التوتر، فالعقيدة الإسلامية تشترك مع العقيدة المسيحية في الإيمان

26 ـ عبد الوهاب المسيري ، معالم الخطاب الإسلامي الجديد: http://www.press-maroc.com

27 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركية الإسلامية، المصدر نفسه، ص 71.

28 ـ بولشعير عبد العزيز، النظام المعرفي في الفكرين الإسلامي والغربي، الطبعة الأولى، منتدى المعارف، 2014، بيروت، ص 126.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

بإله متجاوز للطبيعة والتاريخ، وهو إله العالمين وليس مقصورا على شعب بعينه أو أرض بعينها، ومن ثم فالرؤية الإسلامية والمسيحية تفترض المساواة بين البشر (...)، وهذه رقعة مشتركة بين الديانتين يمكن أن تشكل إطارا مرجعيا لنا جميعا ويمكن الاحتكام إليها"29.

من هذا الطموح الكوني للمعرفة تسعى إذا إسلامية المعرفة إلى عالمية المعرفة في إطار من التوحيدية التي تستهدف أولا الأبعاد الروحية والقيم الإنسانية والأخلاقية، فلا يقتصر النظر على بعد واحد (المادي)، بل البعدين معا المادي والروحي، بكونهما معنى لحقيقة الأشياء كلها، وهو ما يميزها عن الواحدية العلمانية ورؤيتها المعرفية الإمبريالية التي تقوم على إقصاء الآخر والنظر للعالم ككيان واحد غير متعدد في تشكيلاته الحضارية، لتصبح القوة وإرادتها هي نقطة الثبات المعرفية والأخلاقية الوحيدة.

وفْق هذه الرؤية الإسلامية الجديدة تمنح الأسلمة منبع معرفة وهداية لا ينضب أبدا، ومع ذلك لا تزعم أنه يتضمن الأجوبة عن الأسئلة البشرية كلها، فتغلق باب الاجتهاد والنظر، وقد يعترض معترض بقوله: إن القرآن ما جاء لكي يكون كتابا علميا، وما جاء لكي يكون كتاب جغرافيا أو تاريخ مثلا، مما يوجب فصل المعرفة عنه وربطها بالواقع الحسي وآليات الحساب والتجريد حتى نحقق الموضوعية العلمية.

لكن يمكن إجابة المعترض: صحيح أن القرآن الكريم ما جاء لكي يكون كتابا (علميا) كما هو معروف، وما جاء لكي يكون كتاب جغرافيا أو تاريخ أو أي من حقول المعرفة المتنوعة، ولكن الأمر الذي لا ريب فيه هو أن كتاب الله عالج مسألة العلم بطريقة مركبة تمتد إلى كافة الأبعاد بما لا يقبل لجاجة أو إنكاراً30، كما أن كل القرائن العلمية أصبحت تؤكد أن آليات الحياد والموضوعية والاختزال والبساطة التي اشترطتها العلوم الحديثة كمعيار للحقيقة، أصبحت تتعرض للشك وسحب المصداقية، وأنه لا يوجد ما يمنع أن تنطوي المتربات المنطقية لأي نظرية علمية على أيّ أحكام قيمية، "فالعلم الحديث لم يعد يرفض الحقيقة الدينية أو يشكك فيها كما حدث في القرون السابقة، وهو يعترف بأن ليست لديه الكلمة النهائية في موضوع هو أكبر من حجمه بكثير (...)، ثم يعود لكي يؤكد بإمكاناته المحدودة أن الحياة البشرية، لا تستحق أن تعاش إذا نحن جرّدناها من بعدها الكبير الذي يتجاوز حدود المادة والحركة، يعود العلم لكي

29 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركية الإسلامية، مصدر سابق، ص ص 23/22.

30 ـ خليل عماد الدين، مدخل إلى إسلامية المعرفة، (د،ط)، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2006، ص24.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

يتعانق مع الدين ويتوظف لديه، ذلك هو الانقلاب الكبير الذي شاهدته فلسفة العلم المتمخضة عن الكشوف الأخيرة في مجال البحث العلمي، وبخاصة الطبيعة والذرة وطريقة عمل الدماغ البشري"31.

ولتحقيق مستوى من المقروئية السليمة للنص القرآني تستجيب لطموح إسلامية المعرفة، أكد المسيري على ضرورة احترام بعض المداخل المنهجية لحظة تعاملنا مع الخطاب الرباني لفهم أبعاده ومضامينه، ذلك أن طبيعة النص الديني تختلف في مستندها عن المصادر الأخرى للمعرفة، فإذا كان العقل يستند إلى أدلته الاستدلالية البرهانية التي ينبغي أن تتفق مع جملة المبادئ المنطقية القائمة فيه، وإذا كانت المعرفة الحسية تستند إلى معيار التجربة والمشاهدة العينية، فإن القرآن كونه كلام الله المطلق المتعالي مستغن عن الاستعانة بأيّ وسيلة للوصول إلى معرفة الحقيقة32، فالغيب يمكن أن يشكل مادة بحثية خصبة، ولكنه ليس بمضمون ظاهر نجد فيه المعلومات والمفاهيم جاهزة دون إعمال فكري، مما يتطلب آليات تحليلية وقواعد منهجية جديدة للتعامل مع كنهه ومراميه، وهو ما اجتهد المسيري في التأسيس له في إطار دعوته لمشروع معرفي إسلامي عالمي يتوجه لجميع الناس، يقول: "المطلوب هو مشروع معرفي إسلامي عالمي يدافع عن الإنسان ضد العدمية وللأخلاقية العلمانية، وضد الترشيد التقني وتحويل الإنسان إلى مجرد أداة، مشروع لا يتوجه للمسلمين وحسب وإنما لكل العالم، وهذا هو جوهر إسلامية المعرفة"33.

ومن المؤكد أن وعي المسيري بتركيبة الحياة الحديثة وتنوع المعرفة، وتعددية الخطاب الإسلامي والانفجار المعلوماتي المتسارع، وخطورة الفتوى، هو الذي جعله يدعو إلى مراعاة بعض المداخل المنهجية عند مقاربة النص الديني ومجادلته، وإن لم يرتبها ويفردها بمبحث مستقل بل تركها مبثوثة متداخلة فيما بينها في ثنايا كتاباته ومقالاته، وهـي:

. المدخل الأول: "الوعي بالعلاقة الضرورية بين النسبية الإسلامية والاجتهاد"34: يقول المسيري بالنسبية الإسلامية التي تعترف بقدر من اليقين، ولكنها تنطلق من الإيمان بوحدانية الله الثابت الذي لا يتحول، أما المعرفة البشرية فهي متغيرة، يأتيها الباطل من أمامها ومن خلفها، ولا يمكن أن يتحقق معها اليقين المطلق، انطلاقا من هذا المدخل يعتقد المسيري أن "إضفاء قيمة النسبية على آلية الاجتهاد، يعتبر مقدمة أساسية

31 ـ المرجع نفسه، ص ص 25/24.

32 ـ خليل عماد الدين، مدخل إلى إسلامية المعرفة، المرجع نفسه، ص ص 25/24.

33 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركية الإسلامية، مصدر سابق، ص 108.

34 ـ جواد الشقوري، في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي الإسلامي، مجلة أوراق، العدد20، جامعة القاهرة، مصر، 2009.ص 178.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

للوصول بالحوار إلى النتائج المنشودة"35، فالتعامل مع النص الديني ينبغي أن يكون في كليته وتركيبته لا في جزئيته أو حرفيته، مما يتطلب علما نماذجه فضفاضة وآلياته في الاجتهاد مستمرة وغير نهائية.

ـ **المدخل الثاني:** "ضرورة فصل الإسلام كمثال عن الإسلام كتاريخ"36: ينبهنا المسيري من مَغَبَّة الخلط بين الإسلام كمرجعية نهائية مقدسة والإسلام كتراث إنساني وممارسة بشرية قد تصيب أو تخطيء في اجتهادها، يقول: "الخطاب الإسلامي ليس كلام الله، وإنما هو اجتهادات المسلمين داخل الزمان والمكان، ومن ثم فهو متعدد وكثير"37، فالإسلام إذا هو شريعة ربانية تعبر عن قيمة التوحيد وممارسة بشرية تسعى إلى مماثلة هذا التشريع، تقترب منه تارة وتبتعد عنه أخرى، وهذا لا يعني طبعا الأخذ بالنص الديني فقط وإهمال التراث الفقهي في إسلامية المعرفة، بل على العكس ينبغي الاستفادة من المنظومة الفقهية باعتبارها اجتهادا مهما قام به رجال عظماء فهموا الشريعة جيدا وحاولوا تنزيل أحكام منها على الواقع38 .انطلاقا من هذه الرؤية المنفتحة يمكن توليد معرفة مركبة، فقط على المجتهد الناضج ألا يعتبر الإسلام خطابا واحديا، حتى لا يسقط في الحرفية أو الاختزالية أو الواحدية المطلقة.

ـ المدخل الثالث: "النظر إلى النص القرآني باعتباره نصا متساميا"39: إن التميز بين الإسلام كمرجعية نهائية متعالية، والإسلام كمنتوج إنساني تاريخي، يعني الوعي التام بمطلقية الخطاب الرباني وقدسيته وهذه الخاصية المميزة له "تجعله ذا مقدرة توليدية لا متناهية تولد معارف صالحة لكل زمان ومكان، دون أن تسقط في النسبية، إذ تظل المطلقات الكلية هي التي تشكل إطار المعرفة المتجددة المولدة من النص"40.

ـ المدخل الرابع: "ضرورة التفريق بين الحرفية والأصولية في مقاربة النص الديني"41: من الشروط المنهجية التي يؤكد عليها المسيري في عملية الاجتهاد أثناء التعامل مع النصوص الدينية "أنه لا اجتهاد مع النص في حرفيته وحسب وإنما في مجموعه"42، فكثيرا ما تبرز بعض الاجتهادات في هذا الشأن ركيكة

35 ـ المرجع نفسه، ص 178.

36 ـ جواد الشقوري، في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي الإسلامي ،المرجع نفسه، ص 179.

37 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركة الإسلامية، مصدر سابق، ص 53.

38 ـ المصدر نفسه، ص 55.

39 ـ جواد الشقوري، في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي الإسلامي، المرجع نفسه، ص 179.

40 ـ المرجع نفسه، ص 180.

41 ـ المرجع نفسه، ص 182.

42 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركة الإسلامية، مصدر سابق، ص 78.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وغير متيقظة للتناقضات العلمية، بسبب سقوطها في الحرفية التفسيرية، فالأصولية يقول المسيري هي: "العودة إلى أصول الدين الأولى وممارسات الأولين واجتهاداتهم وكذا الصالحين والحكماء ومحاولة تفسيرها تفسيراً جديدا، وتوليد معان جديدة منها تتلاءم والزمان والمكان اللذين يوجد فيهما المفسر الأصولي، وهذه الأصول لأنها الكل، والجذر والقيمة الحاكمة تشكل الإطار العام لعملية اجتهاد مستمرة في كل عصر"43، طبعا وإذا كان المطلوب من المجتهد أن يعمل عقله ولا يتمسك بحرفية النص، فهذا لا يسمح له أن يتعامل مع النص في جزئيته كأن ينتزع منه مقطعا من سياقه، ثم يفرض عليه أي معنى يتفق ومصلحته، بل ينبغي عليه ـ والكلام للمسيري ـ "أن يكون دارسا للنص القرآني في مجموعه وترابطه وتركيبته"44.

ولعل السبب الذي دعا المسيري إلى تأكيده على تجنب الحرفية في التفسير، هو خوفه من الوقوع في التطابق التام أو الالتحام الكامل بين الدال والمدلول، حيث تلغى المسافة بين المبنى والمعنى ولا يدخل العقل في علاقة مع النص بل يصبح جزءًا منه، وحين يمتزج الدال بالمدلول تغيب الصورة المجازية والرموز التي تفترض علاقة اتصال وانفصال بين النص والتفسير، يقول المسيري: "ينبغي أن تظل المسافة بين الدال والمدلول حتمية ونهائية ويبقى المجاز والتشبيه والكناية وسيلة مكتوبة، معناها ليس خفيا باطنيا ولا حرفيا ظاهريا وتحوي معاني مباشرة ومعاني كامنة خلف المجاز، يحاول الإنسان فهمها وتفسيرها"45 .

إن هذا الطرح الذي يقدمه المسيري ينبهنا إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي الانتباه إلى قيمة لغة المجاز والاستعارة، والعمل على تفعيلها بعدما فقدت بسبب ثورات الفلسفات الوضعية الضيقة والحركات البنيوية وما بعدها، والتي عملت على توسيع الثغرة بين الدال والمدلول، تماما مثلما حاول <دي سوسير> واضع أساس علم اللغة البنيوي أن يجعل العلاقة بينهما مسألة خلافية غير مستقرة، وتستمر هذه العملية إلى أن تصل إلى نهايتها حيث أنه لا حدود، فينفصل الدال عن المدلول تماما46، وهنا مكمن الانزلاق، إذ أن الوقوع في الانفصالية المطلقة يجعل اللغة نظاما دلاليا مستقل تماما عن الواقع، وهذا يعني أن العقل لا يتفاعل مع النص ولا مع الواقع، ولا يمكنه أن يتعامل معهما، ولذا يسقط العقل بكل سهولة في لعب الدوال47، وبما أن اللغة وسيلة أساسية للتواصل بين البشر ونقل المعارف بينهم،

43 ـ عبد الوهاب المسيري ، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، مصدر سابق، ص ص 177/176.
44 ـ عبد الوهاب المسيري ، الهوية والحركية الإسلامية ، المصدر نفسه، ص 78.
45 ـ عبد الوهاب المسيري ، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، المصدر نفسه، ص 167.
46 ـ المصدر نفسه، ص ص 147/146.
47 ـ المصدر نفسه، ص 132.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

والمشروع الإنساني بأسره يستند إليها للاحتفاظ بثمرة تفاعلهم، فإن الانفصالية المطلقة بين الدال والمدلول تقضي على مركزية اللغة وجملة الوظائف التي تؤدها.

أما الأخطر من ذلك هو اعتماد آلية الحرفية التامة في التفسير، حيث يصبح الدال مدلولا، وهنا أيضا العقل لا يدخل في علاقة مع الواقع ولا النص، لأنه يذعن لهما كلية، فيسقط هذه المرة في الحلولية والكمونية والتمرد على الثنائيات، ومن أهم الأسباب للوقوع في هذه المخاطر الهجوم على لغة المجاز والإشارة، وعدم التفريق بين الحرفية والأصولية .

لهذا كله ينبغي الحفاظ على مفهوم المسافة في نظامنا اللغوي، حيث تصبح العلاقة بين الدال والمدلول علاقة انفصال واتصال، مما يغني اللغة "ويجعلها متشابكة فضفاضة تصلح للتواصل بين البشر رغم عدم كمالها"48، وبهذا نحقق مستوى معرفي أكثر تفسيرية باحترام المداخل اللازمة في عملية الاجتهاد.

ـ المدخل الخامس: "الوعي بالمسافة الفاصلة بين النص والتفسير"49: إن التميز بين الحرفية والأصولية في التفسير، معناه الابتعاد عن الحرفية، واعتماد لغة المجاز والإشارة التي تظل فيها المسافة قائمة بين العقل والنص والدال والمدلول والنص والتفسير، أين يبقى "المفسر مجتهدا يقترب من النص، يحاول فهم معناه وهو يعلم تماما أنه لن يصل إلى المعنى كله، فالمسافة التي تفصل بين الخالق والمخلوق (وبالتالي بين إدراك الإنسان والمعنى الكامن في النص المقدس) لا يمكن تجاوزها "50.

من المؤكد أن الأخذ بهذه المداخل المؤسسة، سيساعد على فهم النص الديني، ولكنها ليست المداخل النهائية ولا الوحيدة، بل ينبغي الاجتهاد والارتقاء إلى غير نهاية لتحصيل مضامين جديدة وآليات مستحدثة تتماشى ومطلقية الخطاب الرباني، وتستجيب لأفق إسلامية المعرفة.

ـ خاتمة:

من أجل تحقيق إصلاح حقيقي للواقع المأزوم ينبغي تصحيح الرؤية الإدراكية وتغير المناهج المعرفية القائمة على فعل التفكيك و الانفصال، فلا يجب مثلا الاحتكام إلى الموضوعية الحيادية التي تعني موضوعا مرصودا دون ذات راصدة، ولا إلى الواحدية السببية التي تفرض حتمية العلاقة بين العلة

48 ـ عبد الوهاب المسيري ، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، المصدر نفسه، ص 135.

49 ـ جواد الشقوري، في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص 187.

50 ـ المسيري عبد الوهاب، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، المصدر نفسه، ص 180.

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

والنتيجة، بل لا بد من نماذج كلية وشاملة، تؤمن بوجود عناصر ميتافيزيقية ما، تضفي على الوجود أسراره وتحافظ على وجود مسافات معه،

لهذا فالمنهج التوحيدي الذي يدعو إليه االمسيري ليس منهجا اختزاليا ولا رؤية يقينية مطلقة، ولا تفسيرا ذاتيا خالصا أو موضوعية كاملة، ولا سيولة عامة أو صلابة نهائية، ولا حلولاً تاماً أو تجاوزاً شاملاً، بل دعوةً توحيدية إنسانية عالمية. فهو دعوة توحيدية بوصفه نظرة متكاملة للوجود والمعرفة والقيم من خلال الإيمان بوجود إله واحد قائم بذاته، مركزا للكون مفارقا له، فلا هو حالٌ فيه ولا هو غائب عنه تماما، يمنح البشر تماسكهم ويقينهم، بما يضفيه على الكون من تناسق وثبات وغائية، به يمكن أن نتجاوز عالم المادة والكمون والصيرورة، ونؤسس لمنظوماتٍ معرفيةً وقيميةً أخلاقيةً، تماشيا مع مبدأ التوازن القائم أصلا في طبيعة الوجود الإنساني، والذي يتأسس على الجمع بين الحاجات الروحية والمادية وعلى التأليف بين حقائق الوحي واجتهادات العقل، فلا يقتصر النظر على بعد واحد.

قائمة المصادر والمراجع:

ـ القرأن الكريم

1 ـ عبد الوهاب المسيري ، معالم الخطاب الإسلامي المعاصر، مجلة المسلم المعاصر لإعلام العرب، العدد 82، القاهرة، 1998.

2 ـ عبد الوهاب المسيري ، العالم من منظور غربي، دار الهلال، الكويت، 12001.

1: Leur habitat, Leur vie, leurs mœurs , leur organization, editions du seuil, Paris, 1991, p265

Edgar Morin, La method. Les idées

4ـ عبد الوهاب المسيري ، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2010،

5 ـ عبد الوهاب المسيري ، اليد الخفية دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، الطبعة الثانية، دار الشروق، 2001، القاهرة

6 ـ عبد الوهاب المسيري ، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المقدمة فقه التحيز، مصدر سابق، الطبعة الثالثة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي هيردن فيرجينا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1998..

7ـ ممدوح الشيخ، المسيري من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، طبعة الأولى، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2008.

8 ـ عبد الوهاب المسيري ، معالم الخطاب الإسلامي الجديد: http://www.press-maroc.com

المجلد الحادي عشر / العدد الرابع / 10 أفريل 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

9 ـ بولشعير عبد العزيز، النظام المعرفي في الفكريين الإسلامي والغربي، الطبعة الأولى، منتدى المعارف، بيرو، 2014.

10 ـ خليل عماد الدين، مدخل إلى إسلامية المعرفة، (د،ط)، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2006.

11 ـ جواد الشقوري، في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي الإسلامي، مجلة أوراق، العدد20، جامعة القاهرة، مصر، 2009.